بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب الثبات

أ س ب ا ب ا ل ث ب ا ت

بقلم / مصعب الأنصاري

الناشر/ مركز ابن تيميّة للإعلام

1438 هـ - 2016 مـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب الثبات

مقال بقلم الأخ :

مصعب الأنصاري

الناشر:

مركز ابن تيميّة للإعلام

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

إن المتدبر لآيات القرآن العظيم يعلم أن من أساليب أعداء هذا الدين على مر العصور القتل والبطش والأسر ليردوا أصحاب هذه الدعوة عن أصولها وثوابتها (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال: من الآية٣٠).

ولا يخفى على أحدٍ من المسلمين ما تقوم به عصابات حماس من ملاحقة لأهل التوحيد في غزة، وما ذلك إلا بهدف أن يردوهم عن المنهج القويم حتى يستفردوا بمصير أهل غزة، وحتى يحافظوا على مصالحهم المزعومة متلبسين بلباس الشرع والمصلحة الشرعية زعموا.

وهنا أوجه كلامي إلى أولئك الأبطال الشجعان الذين حملوا على عاتقهم إعلاء كلمة الله في أرضه متحملين في سبيل ذلك المصاعب والإبتلاءات ،مذكرا لهم لأسباب الثبات على هذا المنهج القويم والذي باذن الله سيكون بعده النصر والظفر على أعداء هذا الدين.

ولا شك أن أعظم أسباب الثبات على الحق الاعتصام بكتاب الله تعالى الذي بيَّن لنا سبيل المؤمنين وميزه عن سُبُلِ المجرمين ونبهنا إلى أساليب الطغاة في الكيد للدعوة والدعاة قال الله تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) ..
فالقرآن يقلب المحن إلى منح ويُصيّر المكروه محبوبا والبلية عطية فلله الحمد على نعمة الإيمان والإسلام والقرآن .
فالقرآن الكريم كلام رب العالمين هو أعظم واهب للتثبيت؛ لأنه حبل الله المتين وعروته الوثقى، ومن لم يثبته القرآن فاستوحش معه ولم يستأنس إلا بكلام الخلق فكبر على قلبه أربعا، إذ ما عسى ذاك الذي سيثبته بعد كلام الله العاصم من الفتن ومكائد شياطين الإنس والجن، الذي يوضح للمؤمن سبيل المؤمنين ويبين له سبيل المجرمين ويقص عليه أخبار أهل الثبات من الأنبياء والدعاة والصالحين الذين سبقت قوافلهم في عمق الزمان .. (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (هود: ١٢٠).

والاستعانة بالله واللجوء إليه والاستنصار به والثقة والتوكل عليه والافتقار إليه كل ذلك مما يعين على الثبات.

قال ابن القيم رحمه الله ما معناه إن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى مقلب القلوب وأنه يحول بين المرء وقلبه وأنه تعالى كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء فما يؤمّنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته ولذلك فهو يأوي إلى مولاه ويلوذ به دوما ولذلك أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم ودعائهم: (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) ...وبقولهم: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ). وقد كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" رواه الترمذي.

فالاستعانة بالرحمن واللجوء إليه والثقة به من أعظم عوامل الثبات في وقت الفتن والمحن؛ (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) (الشعراء:٦٢).

ومن ذلك تذكر الله دوما ولهج اللسان بذكره فهو من أعظم عوامل اطمئنان القلب وثباته أمام الأعداء (أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨). (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الأنفال:٤٥).

ومن أعظم عوامل الثبات؛ الحياة من أجل نصرة دين الله وأن يكون ذلك هو الهم الأول عند الإنسان قال تعالى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً) (النساء: من الآية٦٦)
فنسأل الله تعالى أن يجعل ذلك همنا الأول وأن يستعملنا به ولا يستبدلنا .. يقول الله تعالى: (فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَتُنصَرُونَ) (هود: ١١٢-١١٣).

ومعنى الإستقامة الاستمرار على الحق والثبات عليه حتى الممات؛ (وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران:١٠٢).
والثبات على المنهج دليل على سلامته، وداع إلى ثقة الخلق به واتباعه، وهو ثمن أو ضريبة النصر ومطية الظفر والطريق الموصلة إلى العز والرفعة والتمكين.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة:٢٤).

يقول سفيان: (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين).

والثبات طريق لتحقيق الأهداف العظيمة والغايات العليا، فالمسلم الذي يسعى لتعبيد الناس لرب العالمين وإخراجهم من عبادة العباد، ويتطلع لرفعة دينه، وإعلاء رايته لا غنى له عن الاستقامة والثبات.. فقد كانت وصية رسول الله لأصحابه: (قل آمنت بالله ثم استقم).

يقول سيد قطب - رحمه الله تعالى ورفع منزلته - عند هذه الآية بعد أن ذكر محاولات المشركين لمساومة الرسول صلى الله عليه وسلم على كثير من أمور دينه ودعوته ومن ذلك ترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم إلى غير ذلك.. يقول ما ملخصه .. هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً. فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها! ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة.. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء! وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلموا في الجزء، فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى التنازل والتسليم والهزيمة .. ومتى دبّت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصراً!

أضف إلى هذا وذاك أن التراجع يحزن قلوب المؤمنين ويقر أعين المشركين، وثبات المؤمن على الحق يقطّع قلوب أعداء الدين ويغيظهم، ومعلوم أن إغاظتهم عمل صالح ميز الله به أحب خلقه إليه بعد الرسل فقال: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (الفتح: من الآية٢٩)

وقال سبحانه: (وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)(التوبة: من الآية١٢٠)

وتذكر أخي الأسير من هو أشد منك حالا وبلاءاً من إخوانك المسجونين في شتى بقاع الأرض ممن يمنعون من أدنى الحقوق فإن ذلك يزيدك ثباتا وتصميما وصلابة وإصرارا.

واعلم أن الله هو الغني وهو غني عنا وعن جهادنا وعن ثباتنا وإنما ذلك لنا يرفعنا الله ويعزنا به، ومن يخلد إلى الأرض ويتراجع أو يتول يستبدل الله قوما غيرهم خيرا منهم ثم لا يكونوا أمثالهم .
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة:٥٤)

أما رسالتي إلى طواغيت حماس وجنودهم، إن الشر مهما استعلى وطغى وبغى فلا بد له من نهاية مريرة . والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية ، فينسون قوة الله وجبروته ، فيهلكهم الله عز وجل . فالبغي إذا تمرد وتكبر فإنه يهلك نفسه بنفسه فيهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشر كما حكى الله عن بني إسرائيل : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص:٥) وهنا يذكر سيد قطب ـ رحمه الله ـ كلاماً جميلاً ، قائلاً :" إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً. فأما حين استعلى الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب .

فدلت هذه على أنه حين يتمحض الشر والفساد ويقف الخير عاجزاً لا يستطيع دفع صائل الطغي والتجبر فإن الله يهيء سبب يهلك به هذا الطاغية . وهكذا كانت نهاية فرعون : (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)(الفجر:١٣ـ١٤) فهذا مصير كل طاغية ، وتأمل قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) فهو سبحانه يرصد عمل هذا الطاغية ـ وكل إنسان ـ حتى يجازيه ، فالله عز وجل راصد لا يفوته شيء . مطلع على تمرد هذا الطاغية وتسلطه . فليطمئن قلب المؤمن ولا يوجل ، فإن الله معه راصد للطغيان والشر والفساد.

وليس العذاب فقط عذاب أخروي ؛ بل هو دنيوي أيضاً كما قال الله تعالى : (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) وإن كان نكال الآخرة هو النكال الحقيقي الأشد والأبقى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) فإذا كان هذا ما حدث مع الطاغية فرعون صاحب السلطة والنفوذ والذي قد ملئ الأرض فسادا فكيف بمن كان غيره؟ إنها سنة الله في الطغاة . ولكن لا يدرك هذا إلا من يخشى الله عز وجل.

ومن سنة الله مع الطغاة أنه يمهلهم في غيهم وطغيانهم (وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (الحج:٤٨) فيستدرج الله الطغاة ليزدادوا

إثماً (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (القلم: ٤٤ - ٤٥) فالله سبحانه وتعالى يمهل لهؤلاء الطغاة ويمدهم بأسباب القوة ، والقدرة على الحرب كيداً ومكراً بهم لا حباً لهم ونصراً ، ثم يأخذهم على حين غرة وثبت في الحديث :"إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ". إنها مسألة وقت " ولكنكم تستعجلون"

وأخيرا فإنا نعلنها مدويةً؛ لا تراجع ولا تنازل عن الثوابت والعقيدة ولا مساومة على الدين ولن نسمح لأحد إن شاء الله أن ينفذ من ثغر أفنينا حياتنا وأعمارنا وأوقاتنا في حراسته حتى يعز الله دينه أو نهلك دونه .. ومن توقع منا غير ذلك فهو واهم حالم مسكين وذلك لان الثمن الذي يبذله أو سيبذله لنا لا ولن يملأ عيوننا ولن يوفي طموحاتنا؛ فنحن نطمح إلى جنة عرضها السموات والأرض ولا يملأ عيوننا أو نبيع أنفسنا إلا بمثل هذا الثمن، فإن كان يملكه فليساوم ولينزل إلى المزاودة، ومادام لا يملكه فهو بهديته وأحلامه يفرح فليطو بضاعته وليستفق من أحلامه وليلذ بالصمت والخسران ..

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: ١١١).

ولقد ضرب أصحاب رسول الله أروع الأمثلة في الصبر والثبات، فذاك بلال يسحل في رمضاء مكة يتلاعب به الصبيان بعد أن يذوق أصناف العذاب وتوضع الصخور العظيمة على صدره فما يزيد عن قول: أحد أحد .. ويقول لو أعلم كلمة تغيظهم أكثر من ذلك لقلتها .. إنها الإرادة الفولاذية التي تستهزيء بالمحن وتنكسر أمامها إرادات الطغاة .. وذاك خباب يلقى على الجمر فيطفئه ودك ظهره ما يرده ذلك عن دينه أو يكسر ثباته ، وتلك سمية وهي امرأة ضعيفة لا عشيرة لها ولا قوة يصب عليها من العذاب ما لا يصمد أمامه صناديد الرجال وترى زوجها يعذب حتى القتل وابنها يسام أصناف العذاب حتى تكسر ضلوعه فما يزيدها ذلك إلا إصرارا وثباتا يهزم الطغاة ويفقدهم عقولهم ويخرجهم عن طورهم.

ولقد سجل لنا التاريخ بعد ذلك أمثلة كثيرة من ثبات سلفنا في وجه الطغيان خلدت ذكرهم تأسوا فيها بثبات أولئك الأوائل مستذكرين ومتبعين دوما لحديث نبيهم صلى الله عليه وسلم "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله".

فهذا سعيد بن جبير يشمخ في وجه جور الحجاج حتى يقتل، وذاك سفيان الثوري وطاووس لايخشون في الله لومة لائم، وذاك ابن تيمية لا يهاب جبروت التتار أو

يركع أمام تسلط حكام زمانه أو يتضرر بظلم خصومه.. وذاك العز بن عبد السلام سلطان العلماء يصدع منكرا فساد المماليك .

والقافلة تطول وتطول ولا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفي تذكر مواقفهم عبرة وعظة وذكرى لمن رام الثبات في زمن الفتن والتراجعات.
فاللهم كن مع اخواننا الأسرى، اللهم اربط على قلوبهم وارزقهم الثبات حتى الممات..

وصلى اللهم على محمد وعلى آله وصحبه..

مركز ابن تيميّة للإعلام

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م